المجمع الاجتماعى
وخلق زعامات الشباب

للأستاذ عبد الرحمن العيسوى

المشاهد فى المجتمع المصرى أنه كلما شغر مكان شاعر أو أديب أو سياسى مشتهر ، أو خلا مكان إخصائى فى فن من الفنون .. ظل الفراغ باقيا لا يشغل زمانا غير يسير .. أفتكون الأمة بملكاتها جميعا ومواهبها كلها وخصبها الروحى ، تركزت سيالاتها فى بضعة رجال ، إذا انقطع اتصال أحدهم تبدد المدد . وهذا هو العقم الوخيم الأثر المنذر بالتلاشى السريع ؟ ! أم يكون شىء غير هذا ؟ أجل ! هو جهل مجتمعنا أهمية خلق الزعامات !

أعرف أن لكثيرين من الناس ، اعتراضات مختلفة ، على هذه الالتفاتة الاجتماعية ، ولكنى أومن بأنها ماذكرت ، وليست سوى ماقررت ، إيمان الفاهم ، لاعنت المعتسف .

وبمجرد دراسة حياة هؤلاء الذين نبغوا فى مرافق حياتنا الاجتماعية والذهنية على الخصوص ، يعطينا صورة واضحة الألوان ، تدعم رأيى ، وتبين لنا أى خسارة على المجتمع فى أن هؤلاء المشهورين ، وصلوا إلى مجدهم بتلك الوسيلة المنيفة ، التى أخذت من قوة عبقريتهم وتيار روحانيتهم ، ما كانت البلاد فى حاجة إلى الدرهم الواحد منه ، بذلوا قناطير — إن وزنت قوى الروح — فى سبيل الوصول . فوصلوا ... ولكن ... وفى أنفسهم جذوة تبقى .. وفى أكثرهم ميل إلى الراحة وشعور عميق بمتاعب الكفاح ... بيد أنه كفاح فى سبيل الوصول . وليس كفاحا فى سبيل الجماعة . إلا أقله فى بعض الأحايين .

إذن فالمجتمع يسرف فى تبديد ثروته الذهنية والروحية . إسراف الجاهل السفيه . ولو أن رجالنا الذين وصلوا فصارت لهم الكلمة المسموعة والرأى المقبول ، كانوا أكثر رحابة نفس ، فأحبوا لابنائهم وتلاميذهم أن يصلوا بغير إجهاد واستنفاد قوى لتستخدم الجماعة جهودهم كاملة ، وقواهم حارة غير مكدودة . لامتلأ هذا الوادى بمشهورين من المغمورين يتزعم كل منهم ، فئة عظيمة لاتحدها حدود الأقاليم ، ولكسبت الجماعة المصرية أضعاف أضعاف ما تحسب نفسها الآن قد ربحته ... وهو ربح — فى مذهبى — من عناصره الأولى العاطفة لا الأحقية المطلقة .

يبدو لعقلى أن هؤلاء البارزين من رجالنا فى الحياة الفكرية والاجتماعية ، فريقان : فريق وهم أن مجده قام على مالقى من متاعب ومناضلة وتذليل صعاب ، فأراد أن يصل الآخرون بطريق المتاعب والنضال والصعاب ، وفريق يعلم يقينا أن مرجلة الوصول اقتضته كما هائلا من قواه وملكاته ، ما كان أحوج الوطن والمواطنين إلى ادخارها والانتفاع

بها ، ولكنه لا يرضى للآخرين ، راحة الوصول ، وقد حرمه المجتمع تلك الراحة فاجهده وأضناه .

فأنت قلما تجد فى مصر من الأكفاء المعترف لهم ، رجلا يتبرع بتقديم شاب ذى كفاءة إلى الجماهير ، فييسر عليه طريقه ويذيع اقتداره ، وينشأ عن ذلك أن يسقط شاعر شهير . فيقول عامة المستنيرين والأدباء ليس من يملأ مكانه ... ولو مددت بصرك أعنى ذهنك إلى الصفوف الخلفية لمكان هذا الشاعر لأبصرت عديدا من الشباب الشعراء لهم خواصه ومزاياه وتفوقه . ولكن الناس لم يألفوا أسماءهم بوضع يقربهم إلى المكان الخالى ، فالمرحلة بينهم وبين الشاعر الشهير ، وهى مرحلة نفسية تصورية فقط ، طويلة المدى ، بعيدة الأمد .

كذلك قل فى المفكرين الاجتماعيين ، وكذلك قل فى بقية طوائف أهل الفنون عامة ، ولو أننى استعطت أن اضرب الأمثال واضحة الأسماء ، لحملت القارئ على التسليم بداهة ، بما ذهبت إليه من رأى .

إن كل أمة من الناس . إنما تكون قيمتها الأدبية والسياسية ، واعتبارها الدولى والذاتى بمقدار ما فيها من نخبة ممتازة . وأمتنا المصرية — فى تجاربى ومشاهداتى — أحفل أمم الشرق بالأفراد الممتازين مع كثرة عددهم ، ولكن أحدا لم يعن بحياطة هذه الفئة وتميزها وتكميل ملكاتها ومواهبها وتقديمها من مكانها ، حتى تبدو عنوانا جميلا لشعبها ، زاخرا بمعانى بيئتها ، معبرا عن خصائص قومها .

فإلى جانب العناية بالشعب عامة ، يجب أن تفرد لهذه الفئة عناية خاصة ، أسميها صناعة خلق الزعامات ، إن التربية فى بلادنا لا تضم عناصر خلق هذه الفئة ، تربية المدرسة أعنى ، وتربية المنزل ، وتربية المجتمع ، أريد بيئة المجتمع الصحية والاقتصادية والعاطفية إلى آخر ما هنالك من العناصر المؤثرة فى تكوين الرجال .

وفينا ولا شك رجال يبلغ تفكيرهم وتسمو أذواقهم الاجتماعية إلى القمة ، لكنهم إما نظريون ، وإما عمليون لا يتضامنون . فتظل رغباتهم الطيبة لخير بلادهم ، أمانى وأوهاما ، لا تبرز ولا تظهر .

وقد تقول ، كيف نخلق من الحطب اليابس ، الدوح الفينانة ؟ والأغصان الوارفة . فنخرج من أمتنا هذه وهى لم تستكمل العناية بتكوينها الطبيعى ، نخبة ممتازة ، وأجيب أن النخبة الممتازة لا تقتضينا إلا العناية الطبيعية مضافا إليها أساليب علماء الاجتماع فى الانتخاب والتربية ، ثم إن السمو بالفرد وبأفراد منتخبين هو تسام بالأمة ، فليست الأمة إلا أفرادا متكررة ، وإنا لنريد النخبة الممتازة لتشعل هذا الحطب اليابس ، فإذا هو ضياء ونور .

وأنا لا أحب أن أفرض رأيي على المصلحين والقادة المسئولين فأضع من عندي توجيهات وأساليب لتحقيق ما أدعو إليه، ولكنني ألقي هذا التساؤل .

أليست حياة الأمة ووجودها السياسي والوطني والاقتصادي والأخلاقي والثقافي والروحي (وتلك كلها مظاهر المجتمع) من الأهمية بحيث تساوي حياة لغة تلك الأمة ؟ ! . . فإذا كانت كذلك . فما بالنا نتشئ المجتمع اللغوي ، ولا نتشئ (المجمع الاجتماعي) ؟ !! . . . فيتولى إعداد الجماعة بأساليبه وتتجه بالمواطنين مواهب أعضائه إلى الصعود والارتقاء .

إن المجمع الاجتماعي الذي يضع لنا أساليب التربية بحيث يتعاون عليها الطبيب والنفسي والمعلم، ويختار لنا الكتب المجدية على أخلاق الشباب ومواهبهم وعقولهم والمؤثرة في كيانهم ووجداناتهم. ويهدف بغرائزهم الجنسية ، هدف "فرويد" وقبله هدف محمد صلى الله عليه وسلم، ويحدد لنا لون حضارتنا الملائمة لعصرنا والمسايرة لعقائدنا وتاريخنا فيختارها روحية جسدية، من (روحية جسدية) أو يفضلها روحية خالصة أو يقررها جسدية ، أعوذ بالله ، فما هدم كل ما نحس حاجتنا اليوم إليه ، إلا تلك الحضارة الجسدية هذا المجمع الاجتماعي ضرورة واجبة، وضريبة لازبة يلتزم بها المسئولون المصلحون ، والقادة المتصدرون .

ولقد قلت في مقالي هذا ، إني لا أريد أن أفرض رأيي . فلأضرب مثالا لما تتخبط فيه من اتجاهات التربية وماله من آثار لنعرف أن المجمع الاجتماعي ألزم للأمة من المجمع اللغوي للغة ، ومن المجلس الأعلى للآثار ، والمجلس الأعلى للزراعة . مع لزوم كل تلك المجالس العالية .

في مجتمعنا رجال — من المشتهرين وغيرهم — تفردوا بنماء القوة الذهنية وحدها دون سائر قوى الشخصية الآدمية، فإذا هم فئة من التصوريين الخياليين، نفعهم ضئيل، بل معدوم إلا إذا سندهم غيرهم فاعتبروا أفكارهم طوبى وعملوا على تحقيقها .

وفينا أيضا رجال نمت ملكاتهم العاطفية وحدها — لأن التربية لم توازن القوى — فخرجوا طائفة من المنحطين الحيوانيين ... وآخرون نمت قواهم الجسدية دون الروحية والذهنية ، فهم أدنى الى الضواري ، وآخرون لم ينم شيء من قواهم ، الا بمقدار البقاء الاعتباري ، فهم وإن توازنت فيهم تلك القوى الهزيلة . عدم مطلق من ناحية النتيجة الاجتماعية .

وليست هذه الأصناف الأربعة إلا الجمهرة والكثرة . وبسبيل الاستدراك أستثني من هذا التنويع، الأشخاص العباقرة وإن لم يتم التوازن لهم بسبب أن موهبة من مواهبهم فاقت

الحد فى القوة . فأولئك تراث لحضارة وفخر لعصورهم . وأولئك يتـازون بأنهم ملهمون ، فى أعصابهم خاصية الاستقبال من العالم غير المنظور .

* * *

أعود فأكرر أن النخبة المتازة شائعة فى الجماعة المصرية ، ولكنها فاقدة التأثير ، لأنها عاجزة عن التضام والتجمع ، فلتهيأ لها الأسباب حتى تحتفظ لأفرادها بشبابهم الذى تحتاجه بلادهم ، بدل أن يتبدد فى سرحلة وصولهم . فمنهم من يصل منهوكا ومن يسقط صريعا ، ثم لتعمل القيادات على توالى الاثمار والانتاج الاجتماعى ، فيتكرر الانتخاب وتتجدد النخبة المتازة كأنها دفعات الخريجين ، فقد يجئ يوم — بالدأب والموالاة والعناية — تكون فيه الأمة كلها ، نخبة ممتازة .

فإذا توفر أهل الطب على فحص الآفات الجسدية المانعة النمو المادى والعاطفى والعقلى والروحى ، وتوفر أهل العلم النفسى على فحص مواهب الفرد النفسية . وما تهيئه له من عمل فى الحياة والمجتمع ، وتوفر أهل الفن على توجيهه التوجيه المنشط لما تحتاجه من مجيد الغرائز والملكات . وتوفر أهل الاقتصاد على تيسير العيش للجميع . وجدت النخبة بل الأمة المتازة وأولئك كلهم هو (المجمع الاجتماعى) .

لارفعة لأمة مالم تكن لها نخبة صاعدة من الشباب ترفعها . فاخلقوا النخبة المتـازة ... أى اخلقوا الزعامات ، فهى صناعة وطنية وضرورة اجتماعية ما

عبد الرحمن العيسوى

" إذا كانت الأمة سعيدة ، فكان معنى ذلك أن الأمة أدت رسالتها " .

أحمد أمين بك